المقصورة الدّريدية

(عرض ودراسة)

قصيدة تقع في مئتين وخمسين بيتاً ونيّف من بحر الرجز نظمها أبو بكر محمد بن دريد ، وقد اشتهرت في تاريخنا الأدبي حتى نُظم على منوالها عدد من القصائد ، وشرحها كثيرون من الأدباء .

وناظمها إمام من أئمة اللغة والأدب ، نشأ في القرن الثالث الهجري ، وقد أطلق عليه لقب « أعلم الشعراء وأشعر العلماء » ووصفه ابن خلّكان في وفيات الأعيان بقوله : « إمام عصره في اللغة والأدب » . وقال فيه المسعودي في مروج الذهب : « إنه قام مقام الخليل بن أحمد في اللغة ، وأورد فيها أشياء لم توجد في كتب المتقدمين » . وذكره المرزباني في معجم الشعراء فقال : « كان رأس أهل العلم والمتقدم في الحفظ للغة والأنساب وأشعار العرب » .

ولا غرو فقد أخذ العلم عن أعلام أجلاّء أمثال أبي حاتم السجستاني وأبي الفضل الرياشي وأبي عثمان الأشناندانى ، كما أخذ عنه جملة من مشاهير الأدباء كأبي الفرج الأصفهاني وأبي علي القالي وأبي القاسم الآمدي وابن خالويه ، والمرزباني ، والرمّاني وسواهم .

ولد ابن دريد في البصرة سنة ٢٢٣ للهجرة وتوفي في بغداد سنة ٣٢١ وفي خلال هذا العمر الطويل تقلبت عليه حوادث شتى وتنقل بين مختلف الأمصار . فقد عاش في البصرة مسقط رأسه حتى اضطربت أحوالها وعمها الشقاء من جرّاء الثورة التي قام بها الزنج هناك . وذلك سنة ٢٥٥ هـ فانتقل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى عُمان حيث مكث نحو ١٢ سنة ثم عاد إلى البصرة وأقام فيها . على أن إقامته في البصرة لم تستمر فقد وردته دعوة من فارس للقدوم إليها وخدمة صاحبيها الأميرين عبد الله بن ميكال وإسماعيل بن عبد الله بن محمد بن ميكال . فلبّى دعوتهما ونظم لهما المقصورة الدريدية كما وضع لهما كتاب الجمهرة فأكرماه غاية الإكرام حتى إنهما قلداه ديوان الكتابة في فارس فكانت كتب الديوان لا تصدر إلا عن رأيه ولا ينفّذ أمرٌ إلا بعد توقيعه (١) . وظل يرتع في ظل نعيمها ويتمتع بنفوذه الكبير هناك حتى عزلاه عن عمالة فارس . فترك فارس وقصد بغداد حيث حظي برضى وتقدير الخليفة المقتدر ، فأجرى عليه خمسين ديناراً كل شهر إلى أن توفي وقد قارب المئة من العمر .

ويؤخذ من أقوال الذين رووا سيرته أنه كان سمح الخلق ، سخيّ اليد ، كريم النفس ، مع ميل إلى الغناء والشراب . وقد عاب عليه بعضهم إدمانه الخمرة وشغفه بآلات الطرب ، وجعلوا ذلك سبباً للطعن في صحة ما كان يرويه ويمليه من أحاديث لغوية وأدبية . على أن طعنهم لم يحطّ من قدره العلمي عند أكثر النقاد ، فظل مقامه في التاريخ الأدبي مقام إمام ثقة وأديب وشاعر كبير .

قلنا إن المقصورة نظمها الأميرين اللذين كانا يتوليان عمالة فارس . على أنها على طولها لم يشغل مدحه فيها فيها أكثر من ١٥ بيتاً . ولم يتكلف الشاعر فيه المبالغات المتطرفة والغلو الكاذب تملّقاً لممدوحيه بل لزم بثّ الشعور الصادق نحوهما معترفاً بفضلهما وكرم أخلاقهما ، كما سترى في ما سنعرضه من قوله فيهما .

الحقيقة أن هذه القصيدة ليست منظومة مدحٍ يتزلف به الشاعر إلى الممدوح ، بل هي عرض لأحوال الشاعر ونظراته في الحياة . وهي مؤلفة من بضعة مواقف قد لا يرى القارئ بينها وحدة ظاهرة في الموضوع ،

---

(١) الوفيات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكنه إذا دقق النظر فيها وجدها موحّدة بروح الشاعر، إذ يجابه الدهر وأبناءه، ويحاول الوقوف أمامه موقف الأبي الشجاع. وإليك مواقفه الرئيسية فيها:

الموقف الأول — (الشاعر والدهر) يفتتحه بمخاطبة غادة خيالية فيقول:

يا ظبيــــةً أشبه شيء بالمهى ترعى الخزامى بين أشجار النقا

وفي نحو ٣٠ بيتاً يبثها ما يشعر به من وطأة الزمان عليه، ولكنه يغتفر كل ذلك بالنسبة إلى ما أصابه من فراق الأحباب:

فكلُّ ما لاقيتـه مغتفـــر في جنب ما أسأره(١) شحط النوى
لو لابس الصخر الأصمُّ بعض ما يلقاه قلبي فضّ أصلاد الصفـــا
شجيتُ لا بل أجرضتني غُصّةٌ عنودها (٢) أقتل لي من الشجا
إن يحمِ عن عيني البكا تجلّدي فالقلب موقوف على سبل البكا
لو كانت الأحلام ناجتني بما ألقـاه يقظانَ لأصماني الردى
منزلة ما خلتها يرضى بهـا لنفسه ذو أدب ولا حِجـا
في كل يوم منزل مستوبَل يشتف ماء مهجتي أو مجتوى
أرمّق(٣) العيش على برضٍ(٤) فإن رمت ارتشافاً رمت صعب المنتشى(٥)

ثم يلتفت إلى الدهر معاتباً بل مراغماً فيقول له:

يا دهر إن لم تك عتبى فاتّئد فإن إروادك (٦) والعتبى سوا

(١) أبقاه البعد.
(٢) العنود فعول من العناد.
(٣) العمل يعمله المرء ولا يحسنه يتبلغ به (المجلة)
(٤) البَرْض: العطاء القليل (المجلة)
(٥) المنتشى: المطلب البعيد (المجلة)
(٦) الإرواد: الرفق والمهل (المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رفّهْ عليّ ، طالمـــا أنصبتني واستَبْقِ بعض ماء غصنٍ ملتحى
لا تحسبَنْ يا دهر أني ضارع لنكبة تُعرقني عرقَ المُدى
مارستَ من لو هوت الأفلاك من جوانب الجوّ عليه ما شكا

على أنه مع ذلك يشعر بأن للقضاء قوة لا يستطيع الإنسان مقاومتها ، وحكماً لا يقوى على ردّه ، فيقول متجلّداً :

رضيتُ قَسْراً وعلى القسر رضى من كان ذا سخط على صرف القضا
من (١) الجديدين إذا ما استوليا على جديد أدنياهُ للبِــلى
ما كنت أدري والزمان مولع بشتِّ ملمومٍ وتنكيث قوى
إن القضــاء قاذفي في هوّة لا تستبلُ (٢) نفس من فيها هوى
فان عثرتُ بعدها ، إن وَألتْ نفسيَ من هاتا فقولا لا لَعا (٣)
وإن تكن مدّتها موصولة ، بالحتف سلطت الأُسا على الأسى

وأمام حكم القضاء الذي لا مرد له تراه يتأسّى بأعلام في التاريخ جار عليهم الزمان ، برغم ما كانوا عليه من عز وعلو مقام . فيذكر ما أصابهم وكيف هلكوا ويعقب على ذلك بقوله :

هل أنا بِدعٌ من عرانين عُلا جار عليهم صرف دهر واعتدى
فان أنالتني المقـــادير الذي أكيده لم آلُ في رأب الثأى (٤)
ما اعتنّ لي يأس يناجي همّتي إلا تحدّاه رجاء فاكتمى (٥)

وإذ ينتهي من وصف جور القضاء وما أصابه من نكباته ، وكيف أن ذلك لم يوقعه في هوة اليأس ينتقل بنا إلى الموقف الثاني :

---

(١) الرواية : إن الجديدين – ولعل (من) من سبق القلم . (المجلة)
(٢) لا تشفى (المجلة)
(٣) وألت : نجت وخلصت . لا لعًا : لا نجاة وهي دعاء للعاثر (المجلة)
(٤) الثأى : الفساد (المجلة)
(٥) اعتنّ : اعترض . واكتمى : استتر (المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

موقف المفاخرة بمضاء العزم وشدة البأس ويبدأه بثلاثة أقسام (جمع قَسَم) فيقسم أولاً بالنياق وهي تحمل الحجاج إلى المناسك المقدسة في مكة . وهذا القسم يشمل أربعة عشر بيتاً في وصف هذه النياق وسيرهنّ في الصحراء وراكبيها الأتقياء ، وقيامهم بواجبات الحج نثبت منها ما يلي :

يَرسبن في بحر الدجى وبالضحى ... يطفون في الآلِ إذا الآلُ طفا
يحملن كل شاحب محقوقِف ... من طول تدآب الغدوّ والسرى
برٍّ برى طول الطوى جثمانه ... فهو كقِدح النَّبع مخيُّ القَرا (١)
ينوي التي فضَّلها رب العلى ... لما دحا تربتها على البُنى
حتى إذا قابلها استعبر لا ... يملك دمع العين من حيث جرى

ويلي ذلك ٧ أبيات يقسم فيها بالخيل التي تحمل الفرسان إلى الحرب والجهاد ، وهاك بعض وصفه لفرسانها .

يحملن كل شمَّريٍّ باسلٍ ... شهم الجَنان خائضٍ غمرَ الوغى
يغشى صلا الموت (٢) بحدّيه ؟ إذا ... كان لظى الحرب كريه المصطلى
لو مُثِّل الحتف له قِرناً لما ... ردّته (٣) عنه هيبة ولا انثنى
ولو حَمَى المقدار عنه مُهجةٌ ... لرامها أو يستبيح ما حمى
تغدو المنايا طائعاتٍ أمرَه ... ترضى الذي يرضى وتأبى ما أبى

ويقسم أخيراً بكرام العرب بمثل قوله :

بل قَسماً بالشمّ من يعرب هل ... لمُقْسِمٍ من بعد هذا منتهى (٤)
هم الأولى أجروا ينابيع النَّدى ... هامية لمن عرا أو اعتفى

---

(١) القرا : الظهر (المجلة)
(٢) الرواية : صلا الحرب . (المجلة) .
(٣) الرواية : صدته . (المجلة)
(٤) هذا القسم للتكريم ، والحلف لا ينعقد إلا بالله العلي العظيم . (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبعد أن يقسم بكل ذلك يأتي بجواب لأقسامه المذكورة ، في ٢١ بيتاً ، واصفاً فيها بأسه ومضاء عزمه وشجاعته ، وانه سيظل أبداً متهيئاً للحرب حتى يوارى في الثرى ، وله صاحبان اثنان هما حصانه وسيفه .

ومن أوصافه في السيف :

وصاحبايَ صارم في متنه ... مثل مَدبّ النمل يعلو في الربى
كأن بين عَيره (١) وغربه ... مُفتَأداً تأكلت فيه الجذى
يُري المنون حين تقفو إثره ... في ظُلَم الأكباد سبلاً لا تُرى

ومن أوصافه للحصان :

يرضخ (٢) بالبيد الحصا فإن رقى ... إلى الربى أورى بها نار الحبا
يجري فتكبو الريح في غاياته ... حسرى تلوذ بجرائيم السحا (٣)
لو اعتسفتَ الأرض فوق متنه ... تجوبها ما خفت أن يشكو الوجى (٤)
إذا اجتهدت نظراً في إثره ... قلت سنا أومض أو برق خفا
كأنما الجوزاء في أرساغه (٥) ... والنجم في جبهته إذا بدا

هذان الصاحبان هما على حد قوله عتاده في الحياة — وبهما يستغني عمَّن جعله من الناس عدة له :

هما عَتادي الكافيانِ فقد مَن ... أعددتُه فلْيناْ عني من نأى
فإن سممت برحى منصوبة ... للحرب فاعلم أنني قطب الرحى

(١) العَيْر : الموضع الناتئ ، والغرب : حد السيف ، والمفتأد : موضع النار . والُجذى : جمع جُذوة : الجمرة (المجلة)
(٢) يرضخ : يكسر . والحبا : أصلها : الحباحب وهي دويبة تضيء بالليل ورخمها لضرورة الشعر (المجلة)
(٣) السّحا : ضرب من الشجر (المجلة)
(٤) الوجى : الحفا (المجلة)
(٥) جمع رسغ وهو مفصل ما بين الحافر والوظيف (المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإن رأيت نار حرب تلتظى فاعلم بأني مسعر ذاك اللظى
خير النفوس السائلاتُ جهرةً على ظبات المرهفات والقنـــا

وهنا ينقلنا إلى موقف ثالث — موقف حنينه إلى العراق وطنه الأصلي . فهو الآن في فارس التي أمَّها كما علمنا ليكون في صحبة أميرها ابني ميكال . وقد حمد صحبتها ورعايتها له ، لكنه لم ينسَ وطنه وأهل وطنه فيعتذر عن مفارقتهم ويصرّح بأن لا شيء راقه بعدهم ، بل هو لم يلق مثلهم في الناس إلا من رعوه في غربته بعطفهم وأفاضوا عليه من كرمهم ، يقصد بذلك الأميرين المار ذكرهما ، وقد جعل من هذا سبباً تخلص به إلى مدحهما في نحو ١٥ بيتاً وفي ذلك يقول :

إن العـــراق لم أفارق أهله عن شنآن صدّني ولا قلى
ولا أطبّى عينيّ مذ فارقتهم شيء يروق العين من هذا الورى
إن كنتُ أبصرت لهم من بعدهم مثلاً فأغضيت على وخز السفا (١)
حاشا الأميرين اللذين أوفدا عليَّ ظلاًّ من نعيم قد ضفا
هما اللذان أثبتـــا لي أملاً قد وقف اليأس به على شفا
تلافيا العيش الذي رنَّقه صرف الزمان فاستساغ وصفا
وأجريا ماء الحيا لي رَغَدا فاهتزَّ غصني بعد ما كان ذوى
وقلَّداني منَّـــةً لو قُرنت بشكر أهل الأرض عني ما وفى

ثم يذكرهما باسميهما ويوجه إلى كل منهما ثناء ومدحاً خاصاً ، ويختتم مدحهما بقوله :

نفسي الفـداء لأميريَّ ومن تحت السماء لأميريَّ الفـــدا
لا زال شكري لهما مواصلاً لفظيَ أو يعتاقني صرف المُنى

وبعد مدح الأميرين يعود إلى ذكرى العراق والتنويه بمكارم أهله :

(١) السفا : الشوك . (المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن الألى فارقتُ من غير قلى ما زاغ قلبي عنهم ولا هفـــا
لكنَّ لي عزماً إذا امتطيتـه لبهم الخطب فآهُ فانفأى(١)

ويقول لو شئت لرتعت في ظلال النعيم والغنى ، وللهوت بصحبة غادةٍ لعوب تخفّف عني آلام الفراق ، ويصف هذه الغادة بتسعة أبيات من مثل قوله :

ولاعبتني غادة وهنـــانةٌ تُضني وفي ترشافها برء الضنى
في خدها روض من الورد على النيّرين بالألحاظ منها يجتنى
لو ناجت الأعصم لانحط لها طوع القياد من شماريخ الذرى
أو صابت القانت في مخلوقٍ مستصعب المسلك وعر المرتقى
ألهاه عن تسبيحه ودينـــه تأنيسها حتى تراه قد صبا

ولكن وصف هذه الغادة الحسناء لم يقطع حبل ذكراه ، فهو يستطرد ناظراً إلى الغيم ، ويدعوه أن يحمل الغيث إلى وطنه ، وذلك في عدد غير قليل من أوصاف رائعة للمطر .

الموقف الرابع — (الشاعر كما يرى نفسه) :

١٥ بيتاً يقف فيها الشاعر مرفوع الرأس يتحدى الزمن والقدر كقوله :

قد مارستْ مني الخطوب ما رسا(٢) يساور الهول إذا الهول علا
لي التواء إن معادِيَّ التوى ولي استواءٌ إن مُوالِيَّ استوى
طعمي شريٌ(٣) للعدوّ تارة والراح والأري لمن ودّي ابتغى
لَدْنٌ إذا لوينت سهل معطفي ألوى إذا خوشنت مرهوب الشذا
يعتصم الحلم بجنبَي حَبوتي إذا رياح الطيش طارت بالحبى(٤)
لا يطيّبني(٥) طعـــم مدنّس إذا استمال طعـم أو اطّبى

(١) فأى الشيء : فتحه أو شقّه (المجلة)
(٢) المارس : الشديد (المجلة)
(٣) الشريُ : الحنظل (المجلة)
(٤) الحُبى : جمع حُبوة ، وهي شد الإزار على الركبتين والظهر (المجلة)
(٥) اطّبى : استمال (المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الموقف الخامس — نظراته في الناس والزمان :

أربع وخمسون بيتاً ينظر فيها الناس والزمان بعين الحكيم المختبر ، ذاهباً فيها مذهب الأمثال البليغة . وقد يلحظ قارئها مسحة من التشاؤم تستولي على نفس الشاعر ، وذلك طبيعي عند جميع الناظرين في الحياة البشرية وتصرفات بني البشر . ومن الأمثلة القليلة التي نثبتها هنا يمكن تكوين فكرة عن آراء الشعراء المفكرين وعن قوة شاعرنا في سبك الحكمة بقالب من الشعر البليغ — قال — :

والناس كالنبت فمنهم رائع ... غضٌّ نضيرٌ ، طعمُه مرُّ الجنى
ومنه ما تقتحم العين فإن ... ذقتَ جناه انساغ عذباً في اللَّها
من ظلم الناس تحاموا ظلمه ... وعزَّ عنهم جانباه واحتمى
وهم لمن لان لهم جانبه ... أظلم من حيات أنباث (١) السفا
عبيدُ ذي المال وإن لم يطعموا ... من غمرةٍ في جرعة تشفي الصدا
وهم لمن أملق أعداء وإن ... شاركهم فيما أفاد وحوى
لا ينفع (٢) اللبُّ بلا جَدٍّ ولا ... يحطّك الجهل إذا الجدُّ علا
من لم تعظه (٣) عِبَراً أيامه ... كان العمى أولى به من الهدى
من لم يعظه الدهر لم ينفعه ما ... راح به الواعظ يوماً أو غدا
من ناط بالعُجب عُرى أخلاقه ... نيطت عُرى المقت إلى تلك العُرى
والناس ألفٌ منهم كواحدٍ ... وواحد كالألف إن أمرٌ عنا
وللفتى من ماله ما قدَّمت ... يداه قبل موته لا ما اقتنى

(١) أنباث : التراب المستخرج من البئر والسفا التراب (المجلة)
(٢) في الرواية : لا يرفع (المجلة)
(٣) في الرواية : من لم تفده عبراً (المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإنما المرء حديثٌ بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى
وآفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجا

وإذ يصف الناس وأخلاقهم وينظر في أعمالهم وتصرفاتهم ، يقوده هذا النظر إلى الحكم عليهم بأن أمجادهم وأكارمهم قلّة بالنسبة إلى سواهم إذ يقول :

إن نجوم المجد أمست أفّلا وظلّه القالص أضحى قد أزى(١)
إلا بقايا من أناسٍ بهم إلى سبيل المكرمات يهتدى
إذا الأحاديث اقتضت أنباءهم كانت كنشر الروض غاداه السدى(٢)

وهنا يقطع مجرى كلامه الحِكَمي ، فينتقل بنا بغتة إلى بعض مشاهد البادية ، ولعلها مما أوحته إليه رحلته التي قام بها ما بين البصرة وفارس .

ويتخيّل وهو بعيد عن وطنه أن طيفاً زاره في الحلم بعد أن سلك إليه البوادي والقفار ويتعجب الشاعر متسائلاً كيف اهتدى إليه ، وهل كان يعرف بلاد فارس قبلاً . وكأنّ ذلك الطيف جاء يسأله : ما الذي جعله يترك وطنه فيجيب :

وسائلي بمزعجي عن وطنٍ ما ضاق بي جنابُه ولا نَبا
قلت القضاء مالكٌ أمر الفتى من حيث لا يدري ومن حيث درى
لا تسألنّي واسأل المقدار هل يعصم منه وزر ومذّرى(٣)
لا غرو إن لجّ زمان جائر فاعترق العظم المُميخّ(٤) وانتقى

---

(١) أزى : قصر وتقبّض (المجلة)
(٢) السّدى : الندى (المجلة)
(٣) في الرواية : ومزدرى : المكان المرتفع (المجلة)
(٤) المُمِخّ : الذي فيه مخ (المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتحمله الذكرى إلى أيام شبابه في وطنه ، بين القيان والخمر والندامى فيقف الآن متّعظاً وقد تقدمت به السن ويقول :

يا هؤليّا (١) هل نشدتنّ لنا ... ناقبة البرقع عن عينَي طلا
ما أنصفتْ أم الصبيّين التي ... أصبتْ أخا الحلم ولمّا يصطبي
إستحيِ بيضا بين أفوادك (٢) ان ... يقتادك البيض اقتياد المُهتَدى
هيهات ما أشنع هاتا زلّةً ... أطرَباً بعد المشيب والجلا (٣)

ويجعل ختام القصيدة خلاصة اختباره في الحياة فيقول :

مِن كلّ ما نال الفتى قد نلته ... والمرء يبقى بعده حسن الثنا
فان أمتْ فقد تناهتْ لذّتي ... وكل شيء بلغ الحدّ انتهى
وإن أعش صاحبت دهري عارفاً ... بما انطوى من صرفه وما انسرى
حاشا لما أسأره (٤) فيّ الحجا ... والحلم أن أتبع روّاد الخنا
وان أرى لنكبة مختضعاً ... أو لابتهاج قَرِحاً ومزدَهى

فالمقصورة الدريدية وإن تكن قد نظمت لأميرين ، أراد الشاعر التنويه بفضلها عليه وإظهار ما لهما من شيم ومكارم ، فإنها في الواقع كما مرّ معنا منظومة تشمل بضعة مواقف يدور معظمها حول شخصية الشاعر ونظره في الدهر وأبناء الدهر ، وليس المدح فيها إلا شيئاً ضئيلاً بالنسبة إلى ما تحتويه من أوصاف عامة ، ومواقف إنسانية ، وحكم بالغة . والآن فلنتحول قليلاً

---

(١) هؤليّا : تصغير هؤلاء (المجلة)
(٢) الفود : جانب الرأس ، والبيض هنا الشيب (المجلة)
(٣) الجلا : انحسار الشعر (المجلة)
(٤) اسأره : أبقاه (المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن أغراضها ومعانيها ، ولنلقِ نظرة وجيزة على الوجهة الفنية منها ، أو ما نسميه بأسلوب النظم . ويراد بالأسلوب الفني كيفية تعبير الشاعر عن أغراضه ومعانيه .

ومعلوم أنه منذ القدم كان نقّاد الشعر يميّزون بلاغة المعنى من بلاغة اللفظ . بل كان بعضهم يرى أن بلاغة الشعر قائمة بالأكثر ، لا على مادّته المعنوية ، بل على الطريقة التي تصاغ بها هذه المادة وتعرض للناس . وعليه قول الجاحظ « المعوّل في حسن الكلام على حسن الإفهام » وهذا رأي كثير من النقاد في تاريخنا الأدبي . وهو رأي فيه كثير من الصواب ، ولكنه قد سيء فهمه على حقيقته حتى تحول منذ القرن الرابع الهجري (بل منذ القرن الذي سبقه) إلى الاهتمام بمحسّنات الكلام والتهافت على ضروب البديع ، مما أدّى في عصور لاحقة إلى التوفر على الصناعة البديعية المتكلفة . وإذا كنا نرى أن بعض فحول الشعر في القرن الثالث كأبي تمام ومن جرى مجراه يعنون بتزيين نظمهم ببعض ضروب البديع فإن ابن دريد في مقصورته لم يحاول الخروج عن طريقة الجاهلية وصدر الإسلام ، بل ظل محافظاً على بساطة العرض وعدم التكلف الصناعي ؛ على أن ذلك لم يمنعه من أن يعبّر عن خواطر نفسه تعبيراً فنياً رائعاً . ويمتاز تعبيره بمزايا أهمها ما يلي :

١ — حسن التصوير للمعاني : معتمداً بدائع التشابيه والاستعارات وغيرها من الكلام المجازي ، مع قليل مما يجيئه عفواً من البديع اللفظي .

٢ — الدقة في استعمال اللفظ المناسب :

وتلك في الواقع مزية كل شعر رائع التركيب حيث لا نجد في ألفاظه نَبوة أو قلقاً يفسد صياغته ويسيء إلى معانيه ، بل يشعر قارئه بانسجام فيه وإيقاع ترتاح النفس إليه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذا تحررت ألفاظ المقصورة وجدتها ، على ما فيها من غريب اللفظ أحياناً ، محكمة الوضع مناسبة للمقام . فهي جزلة في مقام الجزالة ، رقيقة في مقام الرقة ، وعرة حيث الوعورة أدلّ على المقصود ، فخمة حيث الفخامة هي الغرض المنشود .

وخلاصة القول ان الذي يدرس هذه القصيدة حق الدرس وينعم النظر في شتى مواقفها يتراءى له صاحبها من خلال نفثاته فيها رجلاً أبيّ النفس مرهف الحس ، ذا مقدرة عجيبة على تجسيم المعاني بصور رائعة وبعبارات وألفاظ محكمة ، رجلاً عارك الزمان وأهله ، فعرف منه ما ظهر وما خفي ، وهكذا استطاع أن يصفه وصف الخبير المدقق . وها قد مرّ عليه ما يزيد على ألف ومئة سنة ولا تزال مقصورته تُقرأ وتُطرب لحسن معانيها ومبانيها . وحبذا لو أن ناشئة الأدب اليوم يدرسونها كما يجب ليستفيدوا منها كما تستفيد الأمم الراقية من روائع ماضيها .

أنيس المقدسي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net